كيف نطور التفكير النقدي، ونربي على الحق في الاختلاف داخل المدرسة المغربية ؟

ذ مولاي المهدي هيبة

مقدمة

يتعرض الأطفال والمراهقون والمتعلمون لضغط الشائعات والأخبار غير الدقيقة، والمغالطات، خاصة في الوقت الراهن الذي يعرف انفجارا معرفيا، واستعمالا مفرطا للأنترنيت يصل إلى درجة الإدمان، مع ما يرافق ذلك من انتشار فيديوهات تدعو إلى الجهاد المزعوم، وتكفر بعض فئات المجتمع.

ورغم قيام المغرب بمحاولات جبارة توخت تجفيف منابع الإرهاب، من خلال استراتيجية تقوم على إعادة هيكلة الحقل الديني، وتفعيل آليات المبادرة الوطنية للتنمية البشرية، ونهج خطة استباقية وقائية في الجانب الأمني والاستخباراتي، فإن الخطر لا يزال قائما، والدليل على ذلك هو أننا نسمع بين الفينة والأخرى عن تفكيك المكتب المركزي للأبحاث القضائية خلايا إرهابية تابعة لداعش يوجد ضمن أعضائها أحيانا أطفال قاصرون.

لهذا تعد فصول الأقسام الفضاء المعول عليه لاستكمال لبنات الاستراتيجية السابقة، لكن يلاحظ بأن المدرسة المغربية همشت هذا النوع من الكفايات الذي يندرج في إطار ما يسمى بالكفايات الاستراتيجية أو العرضانية أو الممتدة، والتي تعنى بتنمية الحس النقدي، واحترام الاختلاف، واتخاذ القرار، والمقارنة، والتوقع، والحجاج، والتحليل.

وبالرجوع إلى الكتاب الأبيض، نجد بأن معالجة الكفايات الاستراتيجية في مناهج التربية والتكوين عند المتعلمين تتمثل في :

- معرفة الذات، والتعبير عنها.
- التموقع في الزمان والمكان.

التموقع بالنسبة للآخر، وبالنسبة للمؤسسات المجتمعية (الأسرة، المؤسسة التعليمية، المجتمع، والتكيف معها ومع البيئة بصفة عامة).

قدرات تتمثل في تعديل المنتظرات والاتجاهات، والسلوكات الفردية وفق ما يفرضه تطور المعرفة، والعقليات والمجتمع.

إن الموضوعية والشجاعة تقتضيان منا الإقرار بأن المتلقي بصفة عامة والمتعلم، القاصر أو المراهق يتلقف الخبر والمعلومة ويصدقها غالبا بشكل آلي، بمعنى أنه لا يخضعها للتحليل والنقد. وحتى عندما تكون المصادر التي نستقي منها أخبارنا جديرة بالثقة، فإن عقولنا تنصب لنا الفخاخ. إذن السؤال الذي يفرض نفسه هو : كيف نتفادى سرعة التصديق أو السذاجة، لكن أيضا ما يناقضها أي البرانويا1 Paranoia التي يسقط في فخها أولئك الذين يؤمنون بنظرية المؤامرة، ويشككون في كل شيء؟

لكن قبل الإجابة عن هذا السؤال لا بد من التطرق إلى بعض المثبطات التي لا تجعل السبيل دائما آمنا.

الكوابح والعراقيل التي تجعل المتعلم عرضة لردود الأفعال الآلية:

لاحظ عالم النفس المعرفي Stephen Monsell من جامعة exeter سنة 2003 بأن البحث المنهجي عن حل يناقض أو يعارض حدوسنا له كلفة ذهنية، وبالضبط كلفة طاقية. وهذه الأخيرة ذات صلة وطيدة بمنطقة تقع في مقدمة الدماغ تدعى القشرة قبل الجبهية le cortex Préfrontal وهذا ما بينه Joseph M.C Guireet وBotvinick Matthew من جامعة Princetan سنة 2010 عندما أكدا بأنه كلما نشط هذا المكان من الدماغ أكثر، إلا ونكون أقل رغبة في إنجاز المهمة أو العمل. هل يتعلق الأمر، بكسل فكري في قلب الدماغ؟ يبدو أنه ذو صلة بالأحرى بتدبير حذر وفطن، فمخنا يحلل باستمرار حصيلة المنافع والأثمان التي يسعى إلى توسيعها إلى أبعد حد، علما بأن «الكلفة الذهنية تترجم باستهلاك مرتفع للغلوكوز، المصدر

1 - «نحدد عادة أربع سمات للشخصية البارانوية هي : الإفراط في تقدير الذات، وإبداء الشك في موقف الآخر وعدم الثقة فيه، وزيف الحكم أو الرأي وعدم المبالاة بالحقيقة كما هي، وانعدام التكيف الاجتماعي والانطواء على الذات»

الرئيسي للطاقة بالنسبة للدماغ. هكذا عندما نسعى إلى تجاوز حدوسنا الفورية، فإن مخنا يحرق وقوده بسرعة»2 وقد تأكد ذلك غداة تجربة قام بها سنة Holly Miller 2012 من جامعة Lille وزملاؤه حيث تبين بأن العمل الذهني الذي قامت به الكلاب خفض من تركز الغلوكوز في الدماغ(مقاومة الرغبة في الانقضاض على فأرة ميكانيكية).

وفضلا عن ذلك، يمكن الحديث عن بعض الكوابح أو الحدود أو العراقيل الثقافية والاجتماعية' فالمتعلم يقع تحت ضغط نسق تمثلات بني من خلال مصادر خاصة ومحدودة مثل الوسط الاجتماعي، التربية الأسرية،الأفكارالجاهزة، والقوالب المتكررة Stérérotypes 3. والنتيجة هي قيامه بتأويلات آلية للظواهر التي يواجهها.

وهناك تجربة قام بها كل من Cecile Goodman و Jerome Bruner من جامعة هارفارد Harvard حيث طلبا من الأطفال تقييم حجم القطع النقدية، وشرائح الكارطون التي لها بالضبط نفس المساحة. وقد أصدر هؤلاء حكما مفاده بأن القطع النقدية أكبر من أجزاء الكارطون، وهذا ما يفسره علماء النفس بالحمولة الرمزية التي تكتسيها القطع النقدية في عقولهم.

وتجدر الإشارة إلى أن أغلبية الأشياء التي نعتبرها صحيحة لها وزن عجيب، بحيث أنها تبدو طبيعية، وتعفينا من كل فحص منطقي. وهذا على وجه الخصوص ما وضحه عالم الاقتصاد Daniel Kahneman ، الحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد سنة 2002. لقد بينت تجاربه بأنه عندما نجد فكرة جديرة بالتصديق، تعودنا على التشبث بها حتى وإن لم تكن تستند إلى أسس سليمة، فإن قدرتنا على توظيف التفكير النقدي تخمد لأننا لا نتجشم عناء إخضاع الرأي أو الفكرة للفحص والاختبار. إنه نوع من الكسل والاقتصاد في بذل المجهود.

ومن العوائق التي يصادفها المتعلم في حياته اليومية الحدود المعرفية، ذلك أن اللجوء إلى بعض طرق الاستدلال الآلي يمكن أن تفضي إلى ارتكاب أخطاء فادحة: نحن نميل مثلا إلى الخلط بين العلاقة المتبادلة أو الارتباط المتبادل (Corrélation) والسببية أو العلية (Causalité) (أ تبدو في نفس الوقت مع ب، إذن أ هي السبب في ب). هذا الميل يمكن أن يشرح بعض أنواع

2 - Géraid Bronner cerveau Psycho n° 72 Bimestriel novembre- Décembre. 2015. P 44

3 - «جاء هذا المصطلح من عالم الطباعة والنسخ من خلال الصحافي الأمريكي Walter lippmann سنة 1922 الذي استعار هذا اللفظ لتكييفه مع الإدراك الحسي للبيئة أو الوسط، علما بأن هذا الإدراك لا يطابق الحقيقة بقدر ما يطابق رواية مبسطة للعالم، ثابتة وعنيدة تسهل فهم الآخر وتشكل هويته. والسلوك المقولب غالبا ما يكون مصحوبا بالأحكام المسبقة Préjugés . هذه الأخيرة تعكس المواقف تجاه جماعة معينة، ويكون ذلك مصحوبا إما بإحساس قوي بالكراهية والنفور منها أو العكس (الإطراء...)»

الاعتقادات الزائفة. لنفرض بأنك انتعلت نفس زوج الحذاء القماشي في مبارتي كرة المضرب، وفزت فيهما، قد يكون لك ميل طبيعي إلى الاعتقاد بأن زوج الحذاء السابق جلب لك الفوز. وبالتالي تلازم حدثين هما الفوز وانتعال زوج الحذاء. ويحكي Olivier Houdé أستاذ علم النفس بجامعة السوربون (Paris Cité) في مقالته تحت عنوان «خلايا التفكير الحر» أنه عرض على الأطفال صفان من البيادق، يتضمن كل منهما نفس عدد البيادق، لكن هذه الأخيرة وزعت في الصف الثاني بشكل يبدو فيه الفضاء الذي يحتضنها أرحب.

وفي هذا الصدد صرح طفل لم يتجاوز عمره سبع سنوات بأن عدد البيادق في الصف الثاني أكثر من الأول، والسبب راجع إلى أنه تعود على التفكير الاستكشافي Pensée Heuristique، الآلي، القائم على المعتقدات، والأفكار الجاهزة، والذي مفاده: «هناك أكثر في ما هو أطول». لقد اعتمد على الاعتقاد الذي تعود عليه، ونسي استعمال قدرته على الاستدلال أي الفكر الخوارزمي Pensée algorithmique، المنطقي، العقلاني، الذي يقتضي القيام بالعد. وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من التفكير الذي يقوم بصفة عامة على الاستنتاج، والاستدلالات، والمقارنات يتسم في الغالب بالبطء، ويقتضي بذل مجهود ذهني لا يخلو من تجشم عناء الكثير من الصعوبات' فعندما يشرع المتعلم في إعمال عقله «فإن مناطق الفكر الاستكشافي الآلي : الشق ضمنجداري الجانبي le sillon intrapariétal latéral يخمد، في حين أن جزءا آخر من عقله يقع في الأمام ينشط، يتعلق الأمر بالقشرة قبل الجبهية السفلى Cortex préfrontal inférieur، المحول الحقيقي الذي يتيح الانقلاب من الفكر الاستكشافي الآلي إلى الفكر الخوارزمي»4 عندما نشرح للمتعلم بأنه في صالحه أن يحسب لا أن يقوم بتقويم انطباعي، فإن القشرة قبل الجبهية تدير هذا التحويل، إنها تخمد المنطقة الاستكشافية، وتنشط منطقة العد أو الحساب في القشرة الجدارية. باختصار نقول إن القشرة قبل الجبهية السفلى تقوم بتوقيف الآليات الذهنية قصد تنشيط الفكر الاستدلالي، المنطقي، الدينامي، وغير الحدسي.

ومن نماذج الفخاخ في درس الرياضيات نذكر ما يلي :

سعيد يتوفر على 25 كرية، وله خمس كريات أكثر من مصطفى، كم يملك هذا الأخير من الكريات؟

يلاحظ بأن المتعلم لا يفلح دائما في كبح الإجابة المتسرعة، ولا ينتبه للفخ الذي نصب له،

4 - Olivier houdé, cerveau Psycho n° 72 /2015. P 51.

والمتمثل في «أكثر»، فيظن بأن الجواب يتمثل في الآتي : 5+25= 30. بمعنى أنه لم يتمكن من تنشيط خوارزمية الطرح المتمثلة في : 5-25 = 20.

دواعي التربية على الحق في الاختلاف

يعد الحق في الاختلاف، وقبول الرأي الآخر، ونبذ التطرف، والتعصب من الأمور التي يجب أن توليها المدرسة المغربية الاهتمام اللازم حتى تساهم بقسط وافر في تحصين شبابنا، وإكسابهم المناعة التي من شأنها أن تقيهم من الارتماء في أحضان المنظمات الإرهابية التي تجند الأطفال والشباب، وتدربهم على القتل بمقتضى فكر أحادي إقصائي. وتجدر الإشارة إلى أن التسامح – وهو القدرة على قبول وجهة نظر الآخر حتى وإن كانت مختلفة عنا – والتعاطف Empathie ومعناه «الفهم الصادق للأخر»5، وإدماج وجهة نظر الآخر كلها تعلم وتكتسب، وهي تقتضي التأليف بين شكلين من التعاطف: شكل وجداني (الإحساس بانفعالات الآخرين)، وشكل معرفي (تخيل أنك مكانه)، وهاتان القدرتان تتألفان في الدماغ ما بين 8 و 12 سنة الأمر الذي يمكن من تحقيق ما سماه عالم الأعصاب Jean Decety من جامعة شيكاغو بالتقاسم الوجداني le partage émotionnel حيث ذكر بأنه «أثناء نمو دماغ الطفل، فإن بعض الأماكن مثل اللوزة العصبية L'amygdale و تحت سرير المخ L'hypothalamus والقشرة الأمامية المدارية le Cortex Orbitofrontal يبدو أنها تضم هذه القدرة على التقاسم الوجداني «6، علما بأن المزاوجة بين التعاطف الوجداني، والتعاطف المعرفي تحدث في سن التاسعة حسب عالم الأعصاب Argye Hillis من كلية الطب John Hopkins في منطقة من الدماغ، تعد نقطة اتصال بين الوجدان والمعرفة تسمى القشرة الخزامية Le cortex Cingulaire .

تأسيسا على المعطيات السابقة نخلص إلى أنه إذا تعود المتعلمون في هذه المرحلة العمرية أي ما قبل المراهقة على أن يأخذوا بعين الاعتبار وجهة نظر واحدة عن العالم، فإنهم قد يخفقون لاحقا في تبني وجهات نظر مختلفة الأمر الذي قد يجعل منهم عرضة للحركات المتعصبة والمتطرفة.

---

5 - firouzeh Mehran.

Psychologie Positive et Personnalité. Activation des ressources. Collection Medecine et Psychothérapie, Edition Masson 2010,P 254.

6 - Serge Tisseron, cerveau Psycho N° 72, P 58.

الحلول الكفيلة باكتساب التفكير النقدي، والحق في الاختلاف.

أعتقد بأنه يجب التفكير بجدية في إدخال تغييرات على مناهج المواد المدرسة في الابتدائي، والإعدادي، والتأهيلي، تتضمن تدريب المتعلمين على الكفايات الاستراتيجية بصفة عامة، واكتساب مهارات التفكير النقدي، والتربية على الحق في الاختلاف على وجه الخصوص، خاصة إذا علمنا بأن العادات المكتسبة المرغوب عنها لها قوتها، وسطوتها، لأنها تترسخ في الدماغ من خلال مراحل معينة. وبالتالي فالأولى الحيلولة دون تشكلها، لكن في انتظار ذلك، أقترح ما يلي:

تعويد المتعلمين على الشك المنهجي الكفيل بأن يقيهم من السذاجة وسرعة التصديق أو الشك المطلق في كل شيء أي الشك الذي أسس معالمه روني ديكارت منذ أكثر من 400 سنة، من خلال تدريبهم على التساؤل باستمرار عما إذا كانوا يتوفرون على الموارد التي تمكنهم من إصدار أحكام صائبة لا تتأثر بالتمثلات والانطباعات، والعادات السابقة، والحدوس الزائفة. وفضلا عن ذلك يجب تدريبهم على الاستقصاء والاستفسار، وطرح التساؤلات العميقة التي تؤدي إلى الاكتشاف ورصد العلاقات بين الظواهر والأشياء، وإعداد مشكلات، وتقديم المعلومات من خلال الحوار، وتحسيسهم بضرورة المقارنة باستمرار بين ما يقال وما هو موجود في الواقع.

تدريبهم على الاحتكام إلى الفكر الخوارزمي المنطقي العقلاني وآليات التفكير التي تروم البحث عن الحقيقة وإصدار الحكم، سواء في المواد العلمية أو الأدبية من خلال الاستناد إلى الاستنباط، والاستقراء، والمقارنة، والوصف والملاحظة، والاختبار، الأمر الذي من شأنه تجاوز التفكير النمطي، وإلغاء ردود الأفعال الآلية، وتنشيط القشرة قبل الجبهية السفلى، وتفعيل الاستدلال لاحقا، الذي يتمثل في تنشيط منطقة أخرى هي الشق ضمنجداري البطني le sillon intrapariétal ventral وبالتالي سوف يكتسبون مع مرور الوقت التفكير الاستراتيجي7

الذي يتمرد على المعتقدات السابقة، والعادات والقوالب الجاهزة، والوصفات التقليدية، ويكسبهم القدرة على التخطيط، والتحليل، والتركيب، والتفكير الإبداعي الذي يندرج ضمن عمل الفص الأيمن للمخ.

إخبارهم بأنه إذا لم يكونوا متأكدين من الخبر أو المعلومة 100% ، فإنه يجب عليهم التفكير كثيرا وبعمق، والتريث قبل التكلم، واتخاذ القرارات، والجنوح إلى الإرجاء المؤقت للحكم أو القرار في انتظار القيام بالتحري والاستفسار والبحث المعمق والرصين ، خاصة إذا تعلق الأمر بمسألة مصيرية تؤثر في المستقبل .

7 - هو نوع من التفكير الذي نتحدى به الأفكار المتوارثة، والمستقرة، ونتأمل فيه المسلمات»

تخصيص حيز من المنهاج للعروض والمناقشات، والمناظرات في التعليم الابتدائي، و الإعدادي والتأهيلي قصد تربية المتعلمين على التفكير الحر، والحجاج أي الإدلاء بالحجج لدعم وجهة نظر المتكلم، ودحض وجهة نظر المعارض، واحترام الآراء الأخرى، والابتعاد عن التعصب.

تدريب المتعلمين على استراتيجيات القراءة والفهم ، ومهارات إبداء الرأي، والنقد «كي نساعدهم على أن يصبحوا قراء فاعلين،مستقلين، وراغبين في القراءة »8،علما بأن متعة القراءة، والمواظبة عليها، والتفتح على الجديد من خلالها، سلاح فعال من شأنه تطوير شخصية المتعلم، وتحصينه من كافة أنواع الانحراف.

تشجيع التدريس بالمجموعات، والتعليم التعاوني مما يتيح للمتعلمين تكوين علاقات اجتماعية مفيدة، والتفاعل في إطار نوع من التكامل والتسامح، وتبادل الأدوار. وبما أن الاكتظاظ يقف عائقا أمام هذا النوع من التعلم، فإني أقترح العمل بالتفويج في جميع الشعب والمسالك سواء أكانت أدبية أو علمية أو تقنية، مع ضرورة التركيز على التدريس بالكفايات، وتيسير آليات التعلم الذاتي عوض شحن ذاكرة المتعلم بمعارف تتبخر بسرعة .

تشجيع مسرح الطفل أو المسرح المدرسي، وتأليف وأداء مسرحيات في المدرسة تشجع على إشاعة أجواء التسامح، والتعاطف، والتعاون بين المتعلمين، واحترام الآراء المعارضة. ويمكن لأساتذة التربية البدنية أن يساهموا في نشر هذه القيم أثناء المنافسات الرياضية .

عدم سخرية المدرس من أجوبة المتعلمين الخاطئة. ومنعه سخرية المتعلمين من بعضهم، وتقويمه السلوكات المستهجنة، وتشجيعه جميع المبادرات التي تروم تعزيز التضامن، والتعاطف، والتآزر، والمودة، والاحترام المتبادل بين المتعلمين داخل وخارج الفصل .

خلاصة :

إن إخراج الاقتراحات السابقة إلى حيز الوجود، وتفعيلها كفيل بالمساهمة في تجاوز التفكير النمطي، والجنوح إلى التفكير الإبداعي، والانتقال من التلقين إلي التدريب Coaching، وإشاعة جو من التسامح والتعاطف والمودة بدل النظرة الأحادية، الإقصائية. وبالتالي يجب على المدرسة المغربية التي تتوق حاليا إلي إصلاح منظومة التربية والتعليم في إطار الرؤية الإستراتيجية2030-2015 أن تضيف عنصرا آخر إلى الثلاثية الكلاسيكية: اقرأ –اكتب – احسب وهو: فكر أو استدل.

8 - Jean – Noël Foulin Marie Christine TOC ZEK Psychologie de l'enseignement . Armand Colin p63

وفي الختام أرى أن الموضوعية تقتضي منا طرح التساؤلات التالية : هل ستقدم المدرسة المغربية على إيلاء هذا النوع من الكفايات الاستراتيجية أو الممتدة ما يستحقه من عناية؟ أهي مستعدة لتقبل كلفتها السياسية؟ بعبارة أخرى إلى أي حد نريد تكوين مواطن الغد المحصن من التيارات الإرهابية، والمضللة، لكن في نفس الوقت القادر على كشف الأكاذيب والمزاعم والمغالطات الصادرة عن جميع الفئات الفاعلة في الشأن السياسي والثقافي والرياضي والنقابي والجمعوي؟

الهوامش

1-Benoit Verdov. Psychologie Clinique et Psychopathologie .P.U.F.1erè édition 2008.P241.

2- Corrine Mazé et autres. Psychologie Sociale. Hachette livre 2005.P69

7- د.جاسم سلطان. التفكير الاستراتيجي والخروج من المأزق الراهن، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع المنصورة ط 2 . 2010 ص 110 .

المراجع

- Cerveau Psycho n°72 Bimestriel –Novembre – Décembre 2015
- Firouzeh Mehran .Psychologie Positive et Personnalité Activation des ressources. Collection Médecine et Psychothérapie .Edition Masson 2010.
- Jean – Noël Foulin .Marie – Christine TOC ZEK Psychologie de
- L'enseignement .Armand Colin.2006